كليفلاند المدينة التي لها شكل القلب
نزار قباني

عندما دعتني الجمعية الطبية العربية لقراءة شعري في كليفلاند، تساءلت عن العلاقة التي تربط بين كليفلاند وبين الشعر... أو بينها وبين القلب..
قبل أن آتي إلى كليفلاند، لم أكن أعرف أن الأطباء يتقنون فنون البلاغة، والفصاحة، وعلم الكلام...
أما اليوم، وبعد ثلاثة أيام رائعة قضيتها في بيوت أصدقائي الأطباء العرب في كليفلاند، وبين احضانهم الدافئة، أيقنت أن الأطباء، أكثر فصاحة من الشعراء.
وللمرة الأولى، وبعد خمسين عاماً من كتابة الشعر، أشعر أن الأطباء العرب في كليفلاند، يشكلون خطراً على تاريخي الشعري... ويمكنهم بكل سهولة أن يسرقوا قميص الشعر الذي ألبسه...
ثلاث ليال قضيتها معهم، أكلنا فيها شعراً... وشربنا فيها شعراً... وروينا فيها شعراً... حتى خيل لي أنهم أصبحوا هم الشعراء.. وتحولت أنا.. الى طبيب.
نزار قباني.. طبيباً؟؟
من كان يصدق أن يحدث هذا الانقلاب الكبير في حياتي؟ من كان يصدق أن يكون لي عيادة يقصدها الناس من كل زوايا الأرض... ليطلبوا مني وصفة تشفيهم من عذاب الحب...
وجنون الأشواق.. ومفاتن النساء؟
وإذا كان لكل مدينة في العالم شكل ما يعبر عن حقيقتها وعن شخصيتها، فإن باريس لها شكل امرأة... وأثينا لها شكل العقل... وغرناطة لها شكل مروجة إسبانية... ويافا لها شكل برتقالة... والقاهرة لها شكل مئذنة... ودمشق لها شكل عريشة ياسمين... وبيروت لها شكل الحرية.
أما كليفلاند فلها شكل القلب...
أو شكل الوردة الدمشقية...
أو شكل القصيدة...
والحقيقة أن ثمة علاقة عضوية وأساسية بين هذه المدينة التي تخصصت في شؤون القلب... وبين الشعر الذي تفرغ منذ أن خلقه الله لتحريض قلب الانسان على ممارسة العشق، وممارسة الثورة وممارسة الحرية.
إذن فكليفلاند والشعر توأم لا يقبل الانفصام، فكلاهما يداوي قلوب أهل الهوى... وكلاهما يضبط أنفاس العاشقين... وكلاهما يضخ قلب الانسان بالدم والحرارة والطاقة الكهربائية التي تصنع ألف قوس قزح.. وتغير أقدار الرجال.. وأقدار النساء..
وعندما تلقيت الدعوة لزيارة كليفلاند، خفق قلبي بين ضلوعي، وقال لي أرجو أن تقبل الدعوة فوراً، فهذه المدينة هي مدينتي... ومن حقي عليك أن تأخذني لبيت أبي.

وهكذا جئت الى بيت أبي... لاكتشف أن الأطباء العرب في كليفلاند يشكلون سمفونية متناسقة من سمفونيات العلم والمعرفة والكشوف العلمية، وفريقاً طبياً يعمل لخدمة الجنس البشري كله... بعيداً عن أي نظرة إقليمية أو عرقية، أو قطرية، أو طائفية، أو شوفينية.

لقد كنت دائماً مع العقل العربي حين يبدع ويتوهج، ويتفوق... ولم أكن أبداً مع الجسد العربي حين يترهل، ويمتلئ شحماً ودهناً، ويدخل في غيبوبة أهل الكهف.

وكنت دائماً مع العقل العربي حين يغادره، ويسافر، ويكتشف. ولم أكن مع هذا العمل حين يتوقف عن الاجتهاد، وطرح الاسئلة، ويجتر تاريخه كالجمل الصحراوي، مؤمناً منه ليس في الامكان أحسن مما كان...

وكنت دائماً مع العقل العربي حين يهنئ نفسه لمواجهة القرن الواحد والعشرين، ولا يجلس على حصيرة القرن العاشر، يشرب الشاي، ويدخن النرجيلة، ويستشير فناجين القهوة. ويكش الذباب عن عينيه، ويقرأ حكايات أبو زيد الهلالي، ويستقوي بسيف عنتر بن شداد...

وإذا كنا قد تخلفنا عن دخول العصر، فلأن العقل العربي كان في إجازة طويلة.

وعندما يتوقف عقل أمة عن الحركة والابداع، فإنه يتحول إلى بلاطة... أو إلى سيارة فرغت بطاريتها...

إن العقل العربي لا ينقصه الذكاء ولا الموهبة ليضيء ويتفجر... ولكن هذا العقل بحاجة إلى التزييت والتشحيم... وإلى بعض قطع الغيار...

وأنتم في كليفلاند أصدق مثال على نضارة العقل العربي وانفتاحه، وقدرته العلمية المدهشة.

إنني أشعر بالكبرياء، حين أرى الأطباء العرب في كليفلاند يخترقون الحدود الجغرافية للمعرفة، ليصبحوا أطباء عالميين ويثبتوا للدنيا، أن العقل العربي إذا ما أعطي الفرصة فإنه يستطيع أن يتفوق، ويتحدى، ويشتعل كمصباح علاء الدين...

فألف شكر من القلب إلى عاصمة القلوب كليفلاند... وأرجو أن تعتنوا بقلبي قليلاً... وتنظموا ضرباته... وتضبطوا إيقاعاته المحنونة... حتى يستطيع أن يقول لكم،

أحبكم... أحبكم... أحبكم...

مجلة الحكيم، الصادرة في الولايات المتحدة الأميركية نيويورك خريف 1998